السرد القصصي على لسان الحيوان في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون

دراسة تحليلية

إعداد الدكتور

أحمـــد عبد الكريـم الملقـــي

المحاضـر المتفـــرغ في مركـز اللغـــات

جامعـــة العلـوم الإسلاميـــة العالميـــة

عمان، الأردن

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الملخـــص

إن البحث في تراث أي أمة هو بحث في مصادر حكمتها، واستقراء في تاريخ حضارتها، وأبعاد ثقافتها، والتراث العربي لا يخرج عن ذلك إذ يعد السرد القصصي جزء أصيل من التراث العربي القديم، ويعكس نتاج الأمة الثقافي، ووعيها السياسي والحضاري، فالسرد القصصي على لسان الحيوان من بين أقدم الأنواع القصصية الموجودة في تراث القصص العربي، التي تعزى فيها الأقوال والأفعال إلى الحيوانات بقصد التهذيب الخُلقي والإصلاح الاجتماعي أو النقد السياسي، والتي حملت مواقف وتصورات كشفت أبنية الفكر السياسي وجدلياته مع ما يحدث في الواقع السياسي والثقافي، تحت إطار نصوص سردية قصصية على لسان الحيوان تمتزج فيها الحقيقة بالوهم، والواقع بالخيال، والجد بالهزل. وهذا البحث محاولة تبحث في السردية القصصية على لسان الحيوان في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون، إذ يعد هذا الكتاب نموذجاً نثرياً فريداً، بأسلوب السرد القصصي على لسان الحيوان، التي يحتل النمر والثعلب فيها إحدى شخصياته أو بما يمثله هذان الحيوانان من دور مهم في صياغة الحكاية العربية القديمة في المرويّات السردية العربية التي صاغت وأسست للحكاية العربية بما تمثله من رمز وإيحاء فكري وسياسي وأخلاقي .

الكلمات الدالة: السرد القصصي، سهل بن هارون، النمر والثعلب.

Abstract: Storytelling Featuring Talking Animals in Sahl Ibn Haroon's Book *The Tiger and the Fox*: an Analytical Study

By: Dr. Ahmad Abdul Kareem Al-Mulqi

Lecturer Emeritus at the Language Center, The World Islamic Sciences and Education University, Amman, Jordan

Almulqi25@gmail.com

Abstract

Exploring the heritage of any nation is a process of surfing through its sources of wisdom, and probing into the history of its civilization and cultural facets. That also applies to the Arabic heritage. Storytelling is an integral part of the ancient Arab legacy. It reflects the cultural products of the nation in addition to its political and cultural awareness. Stories narrated by talking animals are among the oldest kinds of storytelling in the Arabic history. They feature animals as the narrators and characters in action as a means to moral discipline, social reform, or political criticism. They contrast the structure of political thought and its dialectics against the political and cultural realties within the frame of stories narrated by talking animals, thus mingling the truth with illusion, the reality with imagination, and seriousness with humor. This paper attempts to explore animal storytelling in Sahl Ibn Haroon's book *The Tiger and the Fox*, being a unique prose model of storytelling by talking animals. The tiger and the fox are characters in the book, but they also represent an important role in forming the ancient Arabic art of narrative, which has established the basis for intellectual, political, and moral symbolism in Arabic narrative.

Key words: narrative, Sahl Ibn Haroon, tiger and fox

مقدمة

اهتم العرب بالتأليف القصصي كنوع فني أدبي متطور، يلقي الأضواء على خفايا النفس البشرية، وما يدور في خلدها من قضايا وأحداث سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، في قالب لفظي نثري سلس مثير للقارئ أو السامع، وجاء تأليف العرب القصصي بالكثير من قصص الخيال التي تتضمن حكايات خارقة للطبيعة البشرية، وكان الأدب العربي (شعره، ونثره) أداةً للتعبير عن المرحلة الزمانية الحضارية التي واكبها، ووجهاً من وجوهها المشرقة أو المظلمة، لذا فإنه يعد مصدراً أساسياً لدراسة الحياة العربية اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، لذا، كان الشعر ديوان العرب، يسجل أخبارهم وأيامهم وعاداتهم وتقاليدهم وعلمهم، كما أنه التعبير الأمثل عن ذواتهم وما يعتلج في صدورهم، وتحس به نفوسهم، فضلاً عن التعبير عن وجدان الجماعة وأحلامها وآمالها وآلامها[1].

وقد عني السرد القصصي عند العرب برواية الأخبار الواقعية أو الخيالية في أسلوب قصصي مثير وجذاب فيه غلبة لمصطلح الرواية قديماً، فضلاً عن القصص والحكاية والسرد والأخبار، وهي مصطلحات تفيد في مجملها نقل الحديث والأخبار عن الآخرين لغرض استظهاره وتوضيحه والمتعة، حيث إنّ السرد عند العرب القدامى عرف ب: "كل ما روي عن السابقين من أقوال وأفعال أو قصص أو حكايات وأخبار في كل المجالات والموضوعات" [2].

والسرد عند العرب كان عبارة عن أخبار مبثوثة على شكل فنون أدبية، محورها الأخبار وأيام العرب والرحلات وغير ذلك، وهو الطريقة التي يختارها القاصّ أو الروائي ليقدم بها الحدث

(١) إبراهيم، عبدالله، موسوعة السرد العربي، ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ١٢٣، ٢٠٠٥.

(٢) الأحمد، حسن إبراهيم، أدبية النص السردي عند أبي حيان، ط٣، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠٠٩، ١٨-٢٢.

أو أحداث المتن الحكائي [١].

لذا، كان للسرد القصصي عند العرب مكانته منذ القدم، بالنظر للدور الذي يقوم به في منابرهم ومحافلهم وقضاء أوقات أمسياتهم، وهذا يعلل وفرة المادة السردية وتنوعها موضوعاً وغرضاً، ودوره في تشكيل الوعي المعرفي للعربي منذ القدم وطريقة تفكيره ونظرته عن الوجود والبيئة التي كان يعيش فيها، فضلاً عن ثراء هذا السرد بالمعارف والذخائر التراثية التي لا غنى للدارس عنها من أجل تشكيل تصور صحيح عن هذا السرد [٢].

إلا أن القصص أو الحكايات السردية كانت تروى بداية مشافهة قبل عصر التدوين، وتحديداً في أواسط القرن الثاني للهجرة وهو قرن ظهور الرواة المشهورين، فهي أخبار وحكايات مبثوثة على شكل فنون أدبية يغلب عليها طابع المغامرة أو الحكمة والموعظة، ذات دلالات في الأساطير والخرافات والأخبار وأيام العرب والرحلات وغير ذلك، وجاءت في حكايات قصيرة نثرية تُبرز أحداثاً وشخصيات وهمية على صلة بأحداث وشخصيات واقعية، أما القرن الهجري الثالث فهو قرن الإبداع الأدبي واللغوي والعلمي العربي والإسلامي، بفعل الامتزاج الثقافي مع الشعوب الأخرى، وتعرف العرب عن ثقافات هذه الأمم وقصصها، إذ كان عبدالله بن المقفع (١٤٢ه) السباق في التأسيس لقصص مترجمة منقولة عن ثقافات الأمم الأخرى وحضاراتها كما هو الحال في كليلة ودمنة المنقولة من الفارسية [٣].

وكان من نتاج ذلك تأثر العرب وزيادة عنايتهم بهذا النوع الأدبي ومحاكاتهم له فنظم "أبان بن

---

(١) الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي. ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦، ٣٢.

(٢) إبراهيم، إبراهيم، عبدالله، السردية العربية الحديثة، ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٣، ٥-١٨.

(٣) جميلي، أسماء، بلاغة الخطاب في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠٠٧، ٤٢.

عبد الحميد اللاحقي" كتاب كليلة ودمنة في أربعة عشر ألف بيت، والذي مطلعه :(هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يُدعى كليلة ودمنة). وقصة "النمر والثعلب" لسهل بن هارون، وقصص إخوان الصفا، وخلان الوفا لإخوان الصفا في قصة تداعي الحيوان على الإنسان، واستمر هذا التأثير وازداد خاصة في القرن الرابع الهجري [١].

وبالنظر في هذه الحكايات نلحظ أنها تمتلك حبكة متماسكة، ممتلكة لعناصر القص الفنية، فهي حكايات ذات صيغ سردية للمخلوقات والكائنات، وتصوير للحيوانات في وضعيات فكرية وبشرية، لذلك كانت دراسة الشخصية القصصية فيها ضرورياً في أي عمل سردي، فالشخصية صيغة وجود قائمة على شبكة من العلاقات المتداخلة فيما بينها، ولا تُدرك إلا من خلال إدراك هذه الشبكة مجتمعة، "فالشخصية هي البطل أو غير البطل مادام هو المحور الرئيس لأحداث السرد" [٢].

وبالتالي، يمكن القول: إن هذه الحكايات كان هدفها تهذيب الحكام وتوجيههم ونصحهم تجاه الرعية، إلا أن شخصنة البطل في القصص أو الحكايات لم تكن شاحبة، وإنما واضحة الدوافع والتوجهات والأهداف، إلا أن التداخل بين القصة والحكاية يبدو كبيراً مع احتفاظ الحكاية بسمة العجائبية والقِصر والطابع الرمزي، وإن كانت بعض المرويات أقرب إلى القصص من ناحية الطول، كما هو في قصة "النمر والثعلب" لسهل بن هارون[٣].

وقد تناول موضوع السرد القصصي في التراث العربي العديد من الدراسات التي جعلت من

---

(١) سنان، عبد العزيز، شخصية الثعلب في المرويات السردية العربية في العصر العباسي، مجلة الفراهيدي، ٢٢(١٢)، ٢٠١٥، ٤١-٦٠.

(٢) صحراوي، إبراهيم، السرد العربي القديم، ط١، بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨، ١٧.

(٣) المهيري، عبد القادر، النمر والثعلب لسهل بن هارون، تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣،٢٤.

السرد القصصي أو الحكاية على لسان الحيوان مجالاً للبحث فيها، إلا أن الباحث استطاع الاطلاع على ما تيسر له من دراسات في هذا المجال، ومن أبرزها الآتي:

دراسة محمد رجب النجار (١٩٩٥) وموضوعها [١]: " حكايات الحيوان في التراث العربي، ودراسة قحطان الفلاح (٢٠٠٢) [٢]، التي بحثت في القصة على لسان الحيوان في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون. ودراسة أخرى لقحطان الفلاح (٢٠١١) [٣]، تناولت الأدب والسياسية في قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون. ودراسة ضحى محارب (٢٠١٥) [٤]: " جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني بين الاغتراب والاستبداد. ودراسة سنان عبد الرحيم (٢٠١٥) [٥]: " شخصية الثعلب في المرويات السردية العربية. ودراسة أخرى أجرتها إنصاف المومني (٢٠١٦) [٦]: حاولت تحليل قصة النمر والثعلب

(١) النجار، محمد، حكايات الحيوان في التراث العربي، مجلة عالم الفكر، ٢٤(٢،١)، الكويت، ١٩٩٥، ١٧٥-١٩٨.

(٢) الفلاح، قحطان، القصة على لسان الحيوان: كتاب النمر والثعلب نموذجاً، مجلة التراث العربي، ٨٦(٨٧)، ٢٠٠٢، ٢٤٥-٢٧٦.

(٣) الفلاح، قحطان، الأدب والسياسة: قراءة في قصة النمر والثعلب، مجلة جامعة دمشق، ٢٧(٢،١)، ٢٠١١، ٧٥-٩٢.

(٤) محارب، وضحا محمد، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني. مجلة الفراهيدي، ٢٢(١٠)، ٢٠١٥، ٤١-٥٥.

(٥) سنان، عبد العزيز، شخصية الثعلب في المرويات السردية العربية في العصر العباسي، مرجع سابق، ٢٠١٥، ٤٣.

(٦) المومني، إنصاف، قراءة في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون، دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٤٣(١٣)، ٢٠١٦، ٢٤٤٩-٢٤٦٢.

لسهل بن هارون.

وما يميز البحث الحالي عما سبقه من دراسات في جعله نص قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون المصدر الأساس له ومنطلقه، وحاول البحث تلمس ما في القصة من رموز وخصائص فنية، إلا أن الباحث لم يعمد إلى الموازنة الفنية مع مؤلفات قصصية أخرى، إلا أنه استفاد من الدراسات السابقة في بناء الأدب النظري وتنظيم عناصر البحث.

وقد ارتأى الباحث تقسيم البحث إلى مقدمة، ومبحثين رئيسين، يتناول الأول قصص الحيوان في الأدب العربي، والثاني: كتاب قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون، وتحليل الشكل والمضمون في القصة، وخاتمة، تضمنت أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات ومقترحات بحثية.

المبحث الأول

قصص الحيوان في الأدب العربي

إن القصة على لسان الحيوان من بين أقدم الأنواع القصصية الموجودة في التراث القصصي العربي التي تُعزى فيها الأقوال والأفعال إلى الحيوانات بقصد التهذيب الخلقي والإصلاح الاجتماعي أو النقد السياسي، كما أنها نقلة نوعية في الملكة الأدبية لما فيها من أهمية بالغة تدل على التطور الفكري للمؤلف، وقد زخر الأدب العربي بهذه القصص، فروت مصادر التراث طائفة كبيرة منها، نجدها متناثرة في كتب الأدب، والأمثال، والنوادر والخرافات، وأيام العرب، وغيرها كثير (١).

وإذ تُعد القصص على لسان الحيوان سبيلاً مأمون الجانب يسلكه المؤلف وأصحاب الدعوات الإصلاحية السياسة والاجتماعية والأخلاقية، فيعبرون عما تجيش به صدورهم من أفكار إصلاحية، فضلاً عن المغزى الرمزي الذي تنطوي عليه القصص وتبدو في الأحداث المتسلسلة، فظاهرها لهوٌ وباطنها حكمةٌ في تحقيق الغاية الاجتماعية وتأكد للمعاني والقيم التي تهدف إلى إصلاح المجتمع وتحسين سلوك الحاكم والتأثير على قراراته إزاء الرعية، فهذه القصص تحاول أن تُنشئ عهداً جديداً بعيداً عن الاستبداد والتفرّد في الحكم والرأي، فضلاً عن أنها تسمح بالابتعاد عن إثارة غضب الملوك والحكام (٢).

ويُعد عبد الله بن المقفع رائد هذا المجال، إذ جاء كتابه "كليلة ودمنة" في قالب من النصح على ألسنة الحيوانات، فتجلى فيه أسلوبه في الكتابة والإنشاء في بلاغة عُرفتْ بالسهل الممتنع، وتجلتْ فيها المعاني الخفية في السياسة وحكم الرعية عبر الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي

(١) الفلاح، قحطان، الأدب والسياسة: قراءة في قصة النمر والثعلب، مرجع سابق، ٢٠١١، ٧٦.

(٢) المومني، إنصاف، قراءة في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون،مرجع سابق، ٢٠١٦، ٢٤٥١.

والسياسي، فضلاً عن لفت أنظار الرعية إلى حقوقهم وواجباتهم تجاه السلطةِ والحاكم [١].

وقد حرص ابن المقفع على تحرّي المعاني الباطنة من السرد القصصي على لسان الحيوان، والمغزى الخفي من كتاب "كليلة ودمنة" في أكثر من موضع، فذكر في باب غرض الكتاب: أنَّ هناك أربعة أغراض ينبغي للناظر فيه أن يعلمها، والغَرَضُ الرَّابعُ وهو الأقصى والأهم، وذلكَ لأنه مَخْصُوصٌ بالفَيْلَسُوفِ خاصّةً [٢].

لذا، فإنَّ الحكمة على لسان الحيوان أدعى للقبول والإقناع منها على لسان الإنسان، الذي تنطوي حكمته الإرشادية، ونصائحه الوعظية على نوع من الاستعلاء الضمني بين الناصح والمنصوح، وهو أمرٌ قد يكون في حقيقته مرفوض من المتلقي لا شعورياً، وإن لم يفصح عن ذلك [٣].

فالقصة أو الحكاية نمط من الأنماط السرديّة الذائعة في الآداب القديمة، ولعل أهم ما يميزها عن غيرها من التصنيفات القصصية أن الحيوان هو الذي يلعب دور البطولة فيها، وقد عرف العرب هذا الفن منذ العصر الجاهلي، سواء أكان من نوع الحكاية الفطريّة الشعبيّة، أم من النوع الأدبي الذي يُضمّن دلالات خُلقيّة وتعليميّة وسياسيّة، حيث زخر الأدب العربي بهذه القصص التي نجدها متناثرة في كتب الأمثال، والأدب، والخرافات، وأيام العرب وغيرها، وخطا هذا الفن خطوات واسعة في العصر العباسي الأول نتيجة الانفتاح على الثقافات

(١) سنان، عبد العزيز، شخصية الثعلب في المرويات السردية العربية في العصر العباسي مرجع سابق،٢٠١٥، ٤٤.

(٢) كيليطو، عبد الفتاح، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، ط١، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ١٩٨٨، ٥٦.

(٣) محارب، وضحا محمد، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني. مرجع سابق، ٢٠١٥، ٤١-٥٥. ٤٧.

الأخرى، التي تفاعلت مع الثقافة العربية، فلم يلبث ذلك أن آتى أُكله في مختلف الميادين [١].

ورأى ابن النديم قصص الحيوان والخرافات من الأنماط القصصية الضاربة الجذور في التراث العربي السردي التي تُعزى فيها لأفعال والأقوال إلى الحيوان بقصد التهذيب الخُلقي والتربوي، أوالإصلاح الاجتماعي، أو النقد السياسي، فضلاً عن الإمتاع الفني، الذي تحّققه غرائبية قصص الحيوان وعجائبيتها وقدرتها على الإدهاش والإثارة، ومن ثَم الوصول إلى قلب القارئ وعقله معاً [٢].

كما رأى محمد غنيمي هلال في دراسة له للجذور التاريخية القديمة للقصة على لسان الحيوان، أن ابن المقفع في ترجمته كتاب " كليلة ودمنة" إلى اللّغة العربية، كان سبباً في خلق هذا الجنس الأدبي العربي، والارتقاء به كجنس أدبي له مكانته، بعد أن كانت نشأته شعبية أو أسطورية[٣].

لذا، يعد ابن المقفع إمام هذا الفن، ورائده في الأدب العربي، فقد كان أول من نقل هذا الفن القصصي من مرحلته الشفاهية والشعبية عند العرب إلى الأدب المدّون الكتابي، وعدت أول خطوة من نوعها في تاريخ الأدب العربي القديم عامة، والإبداع القصصي خاصة، وتزداد هذه الخطوة أهمية، إذا وضعنا في الاعتبار أن هذه هي المرة الأولى في التراث الأدبي عند العرب التي يوضع فيها بعد الشعر أول كتاب قصصي [٤].

---

(١) النجار، محمد، حكايات الحيوان في التراث العربي، مرجع سابق، ١٩٩٥، ١٨٢.

(٢) الفلاح، قحطان، الأدب والسياسة: قراءة في قصة النمر والثعلب،مرجع سابق، ٨٣،٢٠١١.

(٣) خورشيد، فاروق، أدب الأسطورة عند العرب، سلسلة دار المعرفة، ٢٨٤(١٢٠)، الكويت، ١٩٩٥، ١٥٠-١٧٨.

(٤) النجار، محمد، حكايات الحيوان في التراث العربي، مرجع سابق، ١٩٩٥، ١٩٢.

ورأى أمين (١٩٧٢) [١]؛ وحميدة، (١٩٨٢) [٢]: أن قصص الحيوان تنشأ في عصور الظلم والاستبداد، حينما يكون التصريح بالرأي سبباً في إثارة حنق الملوك وسخطهم، ويستدلون على ذلك بأنّ معظم كتابها من العبيد والموالي المستضعفين. لكن لا يعني ذلك أنّ هذا الفن مرتبط لزاماً بعصور الظلم والاستبداد، إذ إنّ كثيراً من هذه القصص وضعت لهدف تربوي تعليمي لا علاقة له بالسياسة، أو بهدف التسلية والإمتاع، أو للموعظة الأخلاقية.

(١) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢، ٧٥.

(٢) حميدة، عبد الرزاق، قصص الحيوان في الأدب العربي، ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٢،٧٢-٨٣.

المبحث الثاني

كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون

نهل سهل بن هارون من ينابيع العلم والمعرفة أثناء إقامته في بغداد، إذ أشار إليه ابن النديم في الفهرست، وتحدث عن آثاره قائلاً: "وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسِنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم: عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون بن راهبون، وعلي بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم [١].

وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر أن كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون يزيد على "كليلة ودمنة" في حسن نظمه، واعتبره آية من آيات الإبداع العربي فكراً وأسلوباً ولغة (المسعودي، ٢٦٥،٢٠٠٠). وفي ذلك يقول ابن شرف القيرواني في أعلام الكلام: "ما رأيت الأوائل قد وضعته في كليلة ودمنة، فكتاب النمر والثعلب مشهور الحكايات، وبديع المراسلات، مليح المكاتبات" [٢].

ولما كان القص على لسان الحيوان قناعاً ساتراً يخفي كثيراً من المقاصد والأفكار التي لا يريد الكاتب أن يُعلنها صراحة، كي لا يدخل في المساءلة، أو قد يعرض نفسه للمحاذير، وإن إعلانها صراحة يعني التدخل السافر في شؤون الحكم، ومحاولة توجيه الحاكم وتبصيره، وهذا ما يأباه ويثير حفيظته، لاسيما عصر سهل بن هارون" العباسي الأول"، إذ إنّ الخلفاء كانوا يعدّون أنفسَهم قادةً في الدنيا والدين، وهم أبصر الناس بالعلم، يقول أبو جعفر المنصور في معرض رده على الإمام جعفر الصادق وقد دار بينهما حديث: " أن أحداً لا يعلِّمنا الحلم، ولا

(١) الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء، ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠، ٢٦٦-٢٧٨.

(٢) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢، ٧٥-٩٦.

يعرِّفنا العلم" [١].

بالإضافة إلى ذلك فإن الحكمة على لسان الحيوان أحرى بالقبول، وأجدى بالسماع والإقناع، لعدم وجود النّبرة الاستعلائية الوعظية المباشرة التي تنفر منها النَّفْس، وتمجُّها الأسماع . وكذلك لأنّها تُعد مثيرا أو دافعا لاستبعاد السلوك السلبي ونبذه.

فكتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون ذو طابع سياسي وتعليمي، يدخل في علم تدبير المُلك، على حد تعبير القدماء، وقد كتبه بلغة رفيعة المستوى؛ لأنّه موجه إلى طبقة الصفوة، من الأدباء وكتّاب الدواوين لعهده، وهذا يعني أن كتاب النمر والثعلب نموذجٌ رائدٌ لرواية القصص على لسان الحيوان في الأدب العربي، كما يدلل ذلك على أن سهل بن هارون كان له فضل السبق في تأليف هذا النوع من القصص [٢].

وأما كتابه "النمر والثعلب: فإن أحداثه القصصية تدور حول ثلاث شخصيات رئيسة، هي: (الثّعلب الحكيم، والذّئب الجحود، والنّمر)، وصفات شخوصه هذه مستمدة من فحوى القصة، وليست من عمل الكاتب نفسه.

وخلاصة قصة النمر والثعلب يمكن توضيح فحواها بإيجاز فيما يلي: أن ثعلباً يقال له مرزوق كان يعيش مع زوجته في وادٍ، فدهمه سيل وألقى به في جزيرة من جزر البحر، وكان يحكم هذه الجزيرة نَمِر يقال له "المظّفر بن منصور"، وتخضع له جماعة من الذئاب، فالتقى الثّعلب بأحد الذئاب يسمى "مكابر بن مساور"، تعرف منه على حال الجزيرة وأهلها، ثم أشار على الذّئب أن يأتي النَّمر ويسأله أن يوّليه ولاية، ويبعث إليه شطر ما يكتسبه منها، وبعد محاورات وجدل في مسألة القُرب من السلطان أو البعد عنه، اقتنع الذّئب بصواب رأيه، أو بالأحرى بضرورة

(١) حميدة، عبد الرزاق،قصص الحيوان في الأدب العربي،مرجع سابق،١٩٨٢، ٧٩.

(٢) النجار، محمد، حكايات الحيوان في التراث العربي، مرجع سابق، ١٩٩٥، ، ١٧٨ .

المحاولة، وأتى النّمر على تخوفٍ وألقى إليه ما في جعبته، فعهِد إليه النَّمِر بمناهل الظباء، وأخذ عليه العهود والمواثيق، ثم ذهب النّذئب إلى ولايته بصحبة النّثعلب وهو وزيره وكاتبه، وبعد أن حسنت حالهما أخلّ النّذئب بعهده، فراسله النمر وذكره بوعوده وعهوده، فاستشار النّذئب وزيره النّثعلب، فنصحه بالطاعة للنَّمِر وحسن الولاء، غير أنّه صمّ أذنيه إزاء نصيحته، وأَخَذْته العِزةُ بالإثْم، فظلّ سائراً في غيه، وقامت الحرب بينهما، وبعد معارك اشتد فيها القتال لقي الذئب الجاحد مصرعه، وكاد النّمر أن يقتلَ النّثعلب أيضاً، لولا رجاحةُ عقله، وحسن بيانه، إذ دار بينهما حوار عقلي شائق، وكذلك مع وزراء النّمر في قضايا أخلاقية واجتماعية وسياسية وفلسفية وفكرية، فأعجب النَّمِر بما سمعه من كلامه، ورأى من حسن عقله وجودة منطقه وألفاظه، ونُفُوذ رأيه، وثبوتِ حُجته فأمر له بجائزة، وأمره بالمقام في جواره، وبقُرب داره، فكان يستشيره في خطبٍ إن تعاظَم، وفي أمرٍ إنْ سنح، ويعمل برأيه ومشورتِه إلى أنْ هلك (١).

الشكل والمضمون في قصة النمر والثعلب

وبعد التدقيق في القصة نجد أن قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون تتناول موضوعاً قصصياً واحداً ومتكاملاً، بخلاف "كليلة ودمنة" الذي تتعدد حكاياتُه وتتداخل؛ فكلّ حكاية رئيسة تنطوي على حكاياتٍ وأمثال قصصية فرعية، أو ثانوية، بينما قصة سهل بن هارون فهي سياسية في الأحداث التي تسردها، سوى أن شخصياتها حيوانية، استُعيرت في الحقيقة قناعاً ساتراً، ورمزاً يحمل أفكار المؤّلف، أو الشخصية الحقيقية المرموز إليها، على الرغم من مراعاة الطبيعة الحيوانية في أغلب الأحوال، وهذا ما يحقق النجاح للقصة، دلالياً وفنياً.

(١) المهيري، عبد القادر، النمر والثعلب لسهل بن هارون، مرجع سابق، ١٩٧٣، ٢٢.

يلاحظ أنّ سهلَ بن هارون بدأ قصته بمقدمة موجزة مقتضبة، أستهّلها بالتحميد والصلاة على الرسول الكريم، ثم قال: " أما بعد أيدك الله بتوفيقه، وعصمك بتسديده فإّني رأيتُ أن أصنع لك كتاباً في الأدب، والبلاغة، والترسُّل، والحروب والحِيل، والأمثال، والعالم والجاهل، وأن أُشْرِب ذلك بشيءٍ من المواعظ، وضروبٍ من الحكم، وقد وضعتُ من ذلك كتاباً مختصراً شافياً، وجعلتُه أصلاً للعالم الأديب، والعاقل الأريب [1].

كما يلاحظ أنّ مقدمة ابن هارون تختلف عن مقدمة ابن المقّفع التي أسهب فيها، فألمح غير مرة إلى الأغراض الباطنة والمقاصد الخفية، التي ينبغي أن يتحرى القارئ معرفتها، إلا أّنها في الوقت نفسه تُعرِّف بمضمون الكتاب، فهو في الأدب؛ آيُ التهذيب الخُلقي وتربية النّفس على الفضيلة ومحاسن الأخلاق، كما صنع ابن المقّفع في كُتبه، وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودِمنة؛ إذ يعرض للعلم والجهل وإرشاد الإنسان إلى الخير وصرفه عن مسالك الشَّر [2].

كذلك، حرص سهل بن هارون في كتابه على تضمينه البلاغة والترسُّل والأمثال والمواعظ والعالم والجاهل، وقد وقف سهلٌ على كلِّ هذه القضايا، لذا، فقد كان كتابه مِثالاً للأدب الرفيع، وقد انطوى على ثماني رسائل ديوانية، كتبها على لسان بعض شخوصه من الحيوانات، كما وقف طويلاً على العلم والجهل، فوصف العالم والجاهل وصفًا دقيقاً محكماً، أما الحروب والحيل كما يقول: "فكانت جزءاً أساسياً في بناء الأحداث، وسبباً في تحريكها، ويستدل على ذلك من قوله: " وجعلتُه أصلاً للعالم الأديب، والعاقل الأريب"، بالأبعاد الفكرية العميقة

(١) المهيري عبد القادر، النمر والثعلب لسهل بن هارون، مرجع سابق، ١٩٧٣، ٢٧.

(٢) ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط٦، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢، ٥٠٠-٥٣٥.

للكتاب، التي لا يدرِك كُنهها إلا الأديب الأريب [1].

وعند إمعان النظر في قصة الكتاب "النمر والثعلب"، نلمح أن ابن هارون يصور في قصته خروج الولاة على الخلفاء الشرعيين، واستبدادهم بالأمر دون علمهم أو استشارتهم، ضاربين عرض الحائط بالوعود والمواثيق، التي أخذوها على أنفسهم، بعد أن تقوى شوكتُهم، من أجل الانفصال عن سلطان الخليفة، وذلك بدوافع ذاتية، أو لأغراض شعوبية قومية، أو لمذاهب دينية خاصة، أو غير ذلك، وكثيرا ما خرج الولاة على الخلفاء في عصر سهل بن هارون، وفي غيره، فهو إذاً، يجسد في قصته هذه واقعاً حياً عايشه ورآه، فانعكس في أدبه بصورة تعليمية وفنية ممتعة.

ونجده كذلك يثري كتابه بشيءٍ من المواعظ، وضروبٍ من الحكم، وهنا يتضح الهدف الرئيس من قصة الكتاب، إذ إن كثيراً من الحِكم والمواعظ تعد سياسة، فِكراً وموضوعاً، أو يدور في فَلك السياسة، ولكن قناع السّرد القصصي يضمن له القول فيما يريد، ليبدو كأّنه مجرد راوٍ يروي ما سمعه بحيادية وموضوعية، بادئًا قصته بقوله: "ذُكر أن"، وكأّنه اسند لروايته، تكفُل له التحرر من المساءلة، والدخول في المحظور، علما أن سهلَ بن هارون في قصة النمر والثعلب لا يخالف الخليفة الشرعي، أو ينتقص من قَدره، بل هو حريص على السمع والطاعة للخليفة، متأثراً بوجهة نظر قومه الفُرس إلى الملوك في أّنهم أصحاب حقٍّ شرعي في الحكم، وأنّ طاعتهم واجبة من الرعية؛ مستندين في ذلك إلى أقاصيص شاهنامة الفردوسي التي تؤكد اعتقاد الفرس الراسخ في عدم إمكان قيام دولتهم، وصلاح أمرهم، بغير الالتفاف حول ملك،

(١) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن عباس، البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ط٣، دمشق: دار المعرفة للنشر، ١٩٦٤، ٢١٩-٢٤٣.

واستنكارهم الخروج عن طاعة الملوك الشرعيين، وتوّقعهم سوء المصير للخارج عليه [١].

مما سبق، يتضح أن سهل بن هارون يكرس الإيديولوجيا الفارسية في الحكم، فلم يكن يرسم في قصته نموذجاً أو مثالاً لمدينة فاضلة، أو ديمقراطية، لذا، لا غرابة إذا وجدناه في أثناء قصته ينصح الذئب الذي يجسد الوالي المتمرد بالطاعة وحسن الولاء للخليفة على لسان وزيره الثعلب، إذ يقول: " أيها الأمير، إن النّمر وإن كان من الأخلاق الضيقة على ما قد عرفت وعرفنا، فقد تَردى بِرداء الملك، ودعي باسمه، وسار بسيرة نظرائه". وفي ذلك يحكي سهلٌ سيرة الملوك، من خلال هذا الباب؛ أي متخذًا النُّصح على لسان أحد شخوصه سبيلاً إلى ذلك، وهنا يقول: "وسار بسيرة نظرائه والمِلك صبي الرضا، كهل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، يخلِط الهزل بالجِد، ويتجاوز في العقوبة قدر الّذنب، وربما أثار حفيظتَه الأمر اليسير، وأعرض صفحاً عن الخطب الكبير، فأسباب الموت والحياة معّلقٌة بطرف لسانه، لا يعرف أَلَم العقوبة فَيبقي، ولا يؤَنَّب عن بادرةٍ فينتهي، يخطِئ فيصوب، ويصيب فيفرط، مفتون الهوى، أَخْرق العقوبة، ولا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعلمه من حزمه وعنايته، وطُول صحبته، أن يقتله لخطرة من خطرات موجدته، وينافس الرجال موضعه، فلا الثاني بالأول يعتبر، ولا المِلك على مِثل ما فَرط منه يزدجر، فارفق به، واسلك سبيل موافقته، فإّنك راعٍ عليه في ولايته، ولا تأخذ به في طريق العجب؛ فيأخذ بك في طريق القهر والغلبة [٢].

كما يلاحظ أنّ سهلَ بن هارون استطرد بطريقة مبدعة في سرد صفات الملك، أو الملوك بشكل عام، إلا أنه في حقيقة الأمر ليس باستطراد، بلهو مقصود من الكاتب، تتجّلى فيه فُسحة القول

(١) بدوي، أمين عبد الحميد، جولة في شاهنامة الفردوسي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١،٤٠ – ٥٤.

(٢) ابن هارون، سهل بن راهبون، كتاب النمر والثعلب، حققه وترجمه إلى الفرنسية: عبد القادر المهيري، تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣، ٥-٧٩.

الواسعة، في القص الحيواني، التي لا توجد في غيره من فنون القول في ذلك العصر، فسهلٌ، ههنا، أراد أنْ يجسم صورة الملوك في زمانه ويرسمها واضحة جلية، وفي جانبها السلبي أيضا، وهو ما يسمح به سياق الكلام في القصة، إلا أنّ مغزاه الخفي، وغايته البعيدة هي تقويم سياسة الملك أو الخليفة المقصود بذلك، من خلال لفت نظره وإثارة انتباهه إلى مساوئ أخلاق الملوك عامة، وربما ما ينطوي عليه هو من خُلقٍ غير سديد، كالمجاوزة في قدر العقوبة، أو خلط الجد بالهزل، أو تقّلب المزاج، أو غير ذلك من أمور، استقاها ابن هارون من معرفته بالآداب السياسية الساسانية، ومن ملاحظاته الشخصية، وعلمه ومعرفته بطبائع الملوك وأحوالهم، وبعبارة أكثر دقة، إّنها محاولة لكشف عيوب الملوك وَفضحهم، على نحو غير مباشر، مما يستدعي في ذهن المتلّقي الصورة المثالية والمناقضة لما يقول، التي يجر أن يتمثلها ويحاكيها ويقتدي بها.

كما نلحظ أيضاً أنّ سهلَ بن هارون وعلى نحو غير مباشر يرسم صورة حسنة للنمر/ أي الملك/ للاقتداء به، والذي يبدو من خلال أحداث القصة حازماً عاقلاً، يشاور وزراءه ولا يستبد بالرأي دونهم، ويحكم بالعقل في أمور حكمه، ويجل العقلاء، لذلك نجده قد عفا عن الثعلب وزير عدوه وكاتب الرسائل في ذمه وهجوه، وفي ذلك يقول ابن هارون: " وما نكب الذئب/ أي الوالي، إلا لأّنه خرج من أُنْس الطاعة وعزها إلى المعصية وذلها، وبدل نعمة الله بالكفر، فلا يعقل أن يغض النمر/ الملك/ الطرف وهو رأس الأمر ومِلاكُه، فيفتح باب الفتنة على مِصراعيه، وتغدو دولته أشتاتاً.

وينتهي بنا المطاف إلى القول: إنَّ سهلَ بن هارون أراد في قصته النمر والثعلب أن يقوِّم الحاكم والمحكوم على حد سواء، إذ لا ينبغي للحاكم أن يطغى ويجاوز الحد في الظلم، ويتجبر في حكمه، ويقيد الحريات، ونحو ذلك من خِلالٍ سيئة، أتى على ذكرها في متن قصته، على نحوٍ مباشر أو غير مباشر، كما أراد أن يقول لا يجوز للمحكوم أن يستعلي على الحاكم صاحب الحق

الشرعي ويستبد الوالي بالحكم دون الأخذ برأيه وأوامره، لأن العلاقة بينهما ينبغي أن تقوم على معرفة الحقوق والواجبات، ومراعاتها من قبل الحاكم والمحكوم.

وفي ذلك دلالة على أن سهل بن هارون منحاز إلى الحاكم الشرعي، وربما يكون الدافع من وراء ذك لأن كتابه موجه للحاكم الشرعي مباشرة، كما يستدل على ذلك من مقدمة كتابه النمر والثعلب، ولكّنه في الوقت نفسه، لا ينسى تقويمه وتوجيهه إلى ما فيه الخير والصلاح، فعلى سبيل المثال، يدعو الحاكمَ، على لسان أحد شخوصه، ألّا يتهاون في محاربة الخارجين عليه.

وعند قراءة قصة النمر الثعلب يجدُر بنا التوقف عند قول سهل بن هارون: "ويعمل برأيه ومشورته إلى أن هلك". وكان ذلك ختام قصته، وكان في ذلك القول رأيٌ لابن النديم في كتابه الفهرست، ورأى أنّ في قول سهل بن هارون هذا إثارة في الذهن حول زمن تأليف كتاب "النمر والثعلب"، وقد يكون المقصود بالشخص الذي (هلك) هو الخليفة الرشيد/ النمر، وليس سهل بن هارون الذي توفي في زمن الخليفة المأمون (٢١٥ه)، ففي قصة النمر والثعلب إشارة إلى أن ابن هارون ظل إلى جوار الخليفة الرشيد طيلة حياته، ولعل ابن هارون ترك جملة (إلى أن هلك) مطلقة التأويل والتفسير حرصاً على الإثارة الفنية، أو حرصاً على عدم فقدان المرامي الخفية المعاني الرمزية في قصته، لذلك يعتقد أن تأليف كتاب النمر والثعلب ربما كان بعد موت الخليفة الرشيد (١٩٣ه)، لذا فإنه موجه إلى حاكم آخر [١].

ويمكن القول: إن قصة النمر والثعلب لسهل بن هارون أراد كاتبها أن يعكس صورة سلبية للحكام والولاة في عصره، فهم مستبدون في نظره، لا يفكرون في غير مصالحهم وأمجادهم،

(١) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، شرحه وضبطه: يوسف علي، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ١٢٠-١٣٢.

وأما الرعية فلا يفكر في أمرها أحد، وليس لها أي حق عند أحد، والرجل الحكيم الذي يمثله (الثعلب) هو الذي يدور مع المصالح حيثما دارت، فظل واقفاً إلى جانب الوالي الذي يمثله الذئب ما بقي قوياً، فإذا ما قُتل لم يجد في نفسه حرجاً في أن يعرض نفسه على النمر [١].

وقد يكون الثعلب يجسد صورة سهل بن هارون ذاته، الذي كان خادماً للبرامكة، فلما أنهكهم الخليفة الرشيد، استدار سهل بن هارون نحو الخليفة الرشيد ليقدم له الخدمة والطاعة كما كان يقدمها للبرامكة في عهد قوتهم.

(١) ابن هارون، سهل بن راهبون، كتاب النمر والثعلب، مرجع سابق، ١٩٧٣، ٦٧.

خاتمـــة

بعد الاستعراض السابق لما احتوته قصة النمر والثعلب من سرد قصصي على لسان الحيوان، والتي أراد سهل بن هارون من وراء ذلك تجسيد الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كان سائداً في عصره، وتقويم الحاكم والمحكوم معاً بموضوعية، وأنه لا يجوز للحاكم أن يطغى في حكمه، ولا للوالي أن يتمرد على الحاكم الشرعي ويستبد بالأمر من دونه، إلا أن الكاتب كان منحازاً إلى الحاكم الشرعي رغم عدم إغفاله لنصحه وإرشاده للعدل والصلاح. لذا، فإن قصة النمر والثعلب نص أدبي سردي متميز في مراميه ورموزه وشخوصه، بالإضافة إلى غناه بالدلالات والمضامين الرمزية التي تجسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الواقع السياسي والاجتماعي في عصر القصة آنذاك، فجاءت أحداث القصة متسلسلة مترابطة، من خلال السرد القصصي باستخدام شخصيات إنسانية تقنعت بالشخصيات الحيوانية الرمزية، فهذه الشخصيات الإنسانية لم تأخذ من الحيوان إلا الرمز، أما تصرفاتها وأعمالها فهي بشرية لا حيوانية، لينقل للقارئ صورة الحكام في عصره ونظرة الناس إليهم.

هوامش البحث

-إبراهيم، عبد الله محمد، السردية العربية الحديثة، ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٣، ٥-١٨.

-إبراهيم، عبد الله محمد، موسوعة السرد العربي، ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠٠٥،١٢٣.

-الأحمد، حسن إبراهيم، أدبية النص السردي عند أبي حيان، ط٣، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠٠٩، ١٨-٢٢.

-أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٢، ٧٥-٩٦..

-بدوي، أمين عبد الحميد، جولة في شاهنامه الفردوسي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١،١٢.

-التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن عباس، البصائر والذخائر، ط١، تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني، دمشق: دار المعرفة للنشر، ١٩٦٤، ٢١٩-٢٤٣.

-جميلي، أسماء، بلاغة الخطاب في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ٢٠٠٧، ٤٢.

-حميدة، عبد الرزاق، قصص الحيوان في الأدب العربي، ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٢، ٧٢-٩٠.

-الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء، ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨، ٢٦٦-٢٧٨.

-خورشيد، فاروق، أدب الأسطورة عند العرب، سلسلة دار المعرفة، ٢٨٤(١٢٠)، الكويت، ٢٠٠٢، ١٥٠-١٧٨.

-سنان، عبد العزيز، شخصية الثعلب في المرويات السردية العربية في العصر العباسي، مجلة

الفراهيدي، ٢٢(١٢)، ٢٠١٥، ٤١-٦٠.

-صحراوي، إبراهيم، السرد العربي القديم، ط١، بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨، ١٧.

-ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط٦، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢، ٥٦.

-الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي. ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦، ٣٢.

-الفلاح، قحطان، الأدب والسياسة: قراءة في قصة النمر والثعلب، مجلة جامعة دمشق، ٢٧(١،٢)، ٢٠١١، ٧٥-٩٢.

-الفلاح، قحطان، القصة على لسان الحيوان: كتاب النمر والثعلب نموذجاً، مجلة التراث العربي، ٨٦(٨٧)، ٢٠٠٢، ٢٤٥-٢٧٦.

-كيليطو، عبد الفتاح، الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي، ط١، الدار البيضاء: دار تويقال للنشر، ١٩٨٨، ٥٦.

-محارب، وضحا محمد، جدلية المثقف والسلطان في السرد السلطاني. مجلة الفراهيدي، ٢٢(١٠)، ٢٠١٥، ٤١-٥٥.

-المومني، إنصاف، قراءة في كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون، دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٤٣(١٣)، ٢٠١٦، ٢٤٤٩-٢٤٦٢.

-المهيري، عبد القادر، النمر والثعلب لسهل بن هارون، تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣، ١-٢٦.

-ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، شرحه وضبطه: يوسف علي، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ١٢٠-١٣٢.

-النجار، محمد، حكايات الحيوان في التراث العربي، مجلة عالم الفكر، ٢٤(١،٢)، الكويت، ١٩٩٥، ١٧٥-١٩٨.

-ابن هارون، سهل بن راهبون، كتاب النمر والثعلب، حققه وترجمه إلى الفرنسية: عبد القادر

المهيري، تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٣، ٥-٧٩.